الأسلوب هو الرجل

من الأقوال التي انتقلت إلينا من الأدب الفرنسي قول « بوفون » : الأسلوب هو الرجل ، وقد فُسِّر هذا القول على غير وجهه ، سواء أكان هذا التفسير صادراً عن بعض أدباء فرنسة أم كان صادراً عن بعض أدباء العرب في هذا العصر ، ولا بأس بتوضيح فكرة « بوفون » بعد يسيرٍ من المقدمة .

ظهر « بوفون » في القرن الثامن عشر ، واشتهر بكتابه « التاريخ الطبيعي » وبخطابه في المجمع العلمي الفرنسي وموضوعه « الأسلوب » ، أمّا تاريخه الطبيعي فلا أتعرض له في هذا المقام ، فهو يدخل في باب العلم ، وحسبي الإشارة إلى أن السبيل القويم إلى تقدّم العلم في نظر « بوفون » إنما هو الوصف ، فالعالم يلزمه أن يرى كثيراً وأن يصف بعد الرؤية ما ظهر من الخصائص وما بطن ، وأن يعمل على هذا النحو تاريخ النوع .

غرضي في هذا المقال الإلماع إلى خطاب « بوفون » : الأسلوب ، وعلى وجهٍ أصح إلى جملةٍ من هذا الخطاب ، وأرى أن نعلم تعريف « بوفون » للأسلوب ، فقد عرّفه على هذا الشكل : الأسلوب إنما هو الترتيب الذي يدخله المرء على أفكاره ، والحركة التي يجعلها في هذه الأفكار ، وهو يعني بالحركة السرعة الناشئة عن تسلسل الأفكار المنظّم .

ولكن ما هي جملة « بوفون » التي يدور عليها هذا المقال ؟ قال « بوفون » : الأسلوب هو الرجل ، وقد ظنّ بعض الأدباء أن « بوفون أراد بهذا القول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن الأسلوب هو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه ، فهو المرآة التي ترينا باطن الإنسان ، فلا نمرّ بأسلوب كاتب من الكتّاب إلاّ مررنا خلال هذا الأسلوب بكل دقيق وجليل من طبائع الكاتب وشيمه وما شاكل ذلك .

قد يكون في هذا التفسير وجه من الصواب في بعض الحالات ، فمن أقوال « موروا » في هذا المعنى : كل أثر من آثار الفن يكشف الغطاء في وجه من الوجوه عن بواطن روح صاحبه ... أجل ، قد يكون الأسلوب مرآة الرجل ، فالكاتب الرقيق القلب قد تظهر رقته على بعض كتابته ، والشاعر الغليظ الروح قد تبين غلظته في شعره ، إلاّ أن « بوفون » لمّا قذف بعبارته المشهورة لم تكن غايته أن يقول إن الأسلوب هو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه ، وإنما الذي أراد أن يوضّحه إنما هو هذا الأمر : في كل أثر من الآثار الفنية ، الصيغة والتأليف هما وحدهما من صنع الرجل ، من داخله ، أمّا الأفكار فقد تأتيه من الخارج ، وقد عبّر عن الأفكار بلفظة الأشياء فقال : هذه الأشياء إنما هي من خارج الإنسان ، الأسلوب هو الرجل ذاته ، معنى هذا أن المؤلف تأتيه أفكاره من خارج نفسه ، ولكنه هو الذي يصوغها ويؤلفها ، فالصيغة والتأليف من عنده ، ودفعاً لهذا اللابس المستفيض اقترح بعض نقّاد فرنسة أن تُقرأ عبارة « بوفون » على هذا الوجه : الأسلوب إنما هو من الرجل نفسه ، بدلاً من القول : الأسلوب هو الرجل ، وأي بأسٍ بعد هذا كله بأن نقول : الرجل هو الأسلوب ؟

وقبل النظر في قول « بوفون » لا أرى محذوراً في إمضاء القول في الأسلوب ، فاذا قلنا : الأسلوب ، فانّا نعني بذلك المذهب الذي يذهبه كل واحدٍ منّا في التأليف بين ألفاظه ، فالأسلوب لا يراد به اللفظ وحده ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإنما يراد به التأليف بين الألفاظ ، يراد به تنسيق هذه الألفاظ وترتيبها ، إذ أن الأسلوب يختلف عن الألفاظ ، فقد يجوز أن يستعمل مؤلف من المؤلفين ألفاظاً صحيحة وأن يدخل الضيم على أسلوبه ، فيكون هذا الأسلوب جافاً ، غير مطبوع ، وعلى هذا فان الذين يجعلون للأسلوب المقام الأول يفرّقون بين الأسلوب واللفظ ، فالأسلوب شيء واللفظ شيء آخر .

وكما أن الأسلوب يختلف عن الألفاظ فقد يختلف عن العلم ، فقد نجد علماء ملأ العلم أذهانهم ولكنهم في ميدان الكتابة نجدهم كتّاباً غير مجوّدين ، فقد نمت فيهم ملكات العقل وصحّة التميز والذاكرة ، ولم ينمُ فيهم الحسُّ والخيال ، فنشأ عن ذلك أن أسلوبهم غير جذّاب ، لا لطف فيه ولا حرارة .

وقد تختلف الأساليب على اختلاف الرجال والأمم ، فالرجل صاحب الفهم الثاقب أسلوبه سريع ، وجيز ، ململم ، والرجل الذي يغلب عليه الخيال له تعابير برّاقة ، مصوّرة ، والرجل الذي يعوزه التميز لا تربط جمله وأجزاء تآليفه صلة من الصلات .

وهذا الاختلاف نشهده في الأمم نفسها ، فأهل الشرق ، وهم أصحاب خيال ، قد حمّلوا أساليبهم بي كل زمنٍ من الأزمان صوراً قويّة تظهر عليها آثار الغلوّ ، وأهل أثينة ، وهم شعب مصقول ، ليّن ، قد جعلوا لأنفسهم أسلوباً واضحاً ، صافياً ، أمّا اليونانيون في آسية ، وهم أصحاب فخفخة وبهرجة ، فقد كان لهم أسلوب فيه ثرثرة وانتفاخ .

فلندخل الآن في موضوعنا ، ولننظر في الذي ذهب إليه « بوفون » من أن المعاني تأتي من خارج الإنسان ، وأن الصيغة والتأليف إنما هما وحدهما من صنعه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنّا نجد في الأدب الفرنسي أن « ڤولتير » لم يكن مبدعاً من المبدعين ، أي لم يأت بشيء جديد من الأفكار والمعاني ، فقد كان لا يستطيع أن يسلك مسلكاً إلاّ إذا كان هذا المسلك مُمهّداً له ، فقد اغتصب أفكار غيره وجعلها أفكاره الخاصّة ، جعلها ملكه الخاص ، فقد قالوا إنه لم يكتب بالفرنسية كاتب أحسن من « ڤولتير » ، إن جمله قصيرة ، سريعة ، وعبارته واضحة ، وأوضح صفات أسلوبه البساطة ، إنه يستخدم لغة كل الناس في أسلوب لا يفوقه أسلوب من حيث الطبع والسهولة .

إنّا نجد في هذا الوصف الذي تشتمل عليه بعض كتب الأدب الفرنسي ما يؤيد قول « بوفون » من أن الأفكار تأتي من الخارج ، أمّا صيغتها وتأليفها فانها من صنع الرجل نفسه ، فقد نهب « ڤولتير » أفكار غيره ، ولكنه استطاع أن يجعلها ملكه الخاص بفضل أُسلوبه وبفضل مزايا هذا الأسلوب التي تقدّمت الإشارة إليها .

ولقد قال بعض نقّاد الانكليز في كاتبهم العظيم « برنارد شو » ما يقرب من قول الفرنسيين في كاتبهم « ڤولتير » ، فقد كان « شو » يعرض أفكاره على شكل بديع ، وإن لم يكن مبدعاً لهذه الأفكار على الرغم من عبقريته وقوة حجته .

يُستنبط من كل ما تقدم أن الشأن كل الشأن إنما هو للأسلوب ، أي لصيغة الأفكار وتأليف المعاني ؛ وقد ذهب هذا المذهب كبار الكتّاب في فرنسة ، أمثال ڤولتير » و « فرانس » و « فاكه » و « موروا » وغيرهم ، فمن كلام « ڤولتير » أن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها ، أي من نواحي القوالب التي تصبّ فيها ، لأن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذي يفرّق بين كاتب وكاتب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما هو ملك الذي يثبّته في الأذهان .

ومن كلام « فاكه » أن الذي يخلّد الكاتب إنما هو حسن الأسلوب .

وقريب من هذا الرأي قول « موروا » : الصيغة في أي أثرٍ من آثار الفن إنما هي سرٌ من أسراء البقاء .

أمّا كتّاب العرب الذين هم على هذا الرأي فيأتي على رأسهم إمام البلاغة ، وأعني به الجاحظ الذي قال :

« المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » .

وقد تصدّى أستاذ فاضل من أساتذة جامعة القاهرة لقول الجاحظ ، وآخذه بهذا القول ، ولامه على استخفافه بمقادير المعاني وتفضيل الألفاظ عليها ، ورأى أن الذي حمل الجاحظ على أن ينزع هذه النزعة إنما هو أمر ديني ، فقد كان يرى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه ، وهذا ما حمله على تعظيم الألفاظ والتهاون بالمعاني . إني لا أريد أن يتشعّب الموضوع حتى لا يتعقّد ، فلا أرى مناظرة الأستاذ الفاضل في هذا المعنى ، فاني أعتقد أنهم خرجوا بكلام الجاحظ عن طبيعته ، إنه لما قال : المعاني مطروحة في الطريق ، لم يختلف في قوله عن قول « بوفون » : الأفكار تأتي من الخارج ، فالجاحظ لم يستخف بالمعاني وإنما عبّر عن سهولة الحصول عليها ، فكأنها ماثلة لكل عين ، فاذا مرّ أحدنا في الطريق بفقير رث الثياب ، يكاد ينسلخ لحمه عن عظمه من الجوع ، أفلا نجد في هذا المشهد معنى من المعاني الدالّة على البؤس ؟ إلاّ أن تمثيل هذا المعنى للأذهان إنما هو من عمل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأسلوب ، أي من عمل الصيغة والتأليف ، من عمل السبك وحسن النظم ؛ وكتب الجاحظ تدلّ على محاسن هذه الصيغة والسبك والنظم وما ماثلها ، إنها تدلُّ على براعة الأسلوب ، ومعاذ الله أن نتهمه بالإقلال من مقادير المعاني والأفكار وتآليفه كلُّها قد غصَّت بالمعاني والأفكار على اختلاف وجوهها ، في كل باب من أبواب الفلسفة والأخلاق والتربية والاجتماع والعلم وما شابه ذلك ؛ فاذا كان الجاحظ لم يتهاون بالأسلوب فهو لم يتهاون بالمعاني ، إلاَّ أنه كان ماهراً كلَّ الماهر ، يعرف كيف يناسب بين ألفاظه ومعانيه ، فهو كالخيَّاط الحاذق الذي يفصِّل الأثواب على مقادير الأجسام ، ولست في حاجة إلى المجيء بالبرهانات الصادقة على اهتمامه بالمعاني والألفاظ معاً ، وفي كتابه : البيان والتبيين كثير من الشواهد على هذا الأمر ، إلاَّ أن المقام لا يتسع للإفاضة في هذا الموضوع ، فلماذا نأخذ كلام الجاحظ على ظواهره ولا نتعمق قليلاً في بواطنه ؟

لقد تباينت نظرات نقَّاد العرب في شأن المعاني وصيغتها أمثال ابن قتيبة والعسكري وابن رشيق وابن الأثير ، إلاَّ أن لهذا الموضوع مقاماً يختلف عن موضوعنا ، أصل الموضوع توضيح فكرة « بوفون » : المعاني تأتي من الخارج ، أمَّا نحن فنملك صيغتها وتأليفها ؛ فالأسلوب هو من عندنا ، والمعاني من خارجنا ؛ فليس موضوعنا تفضيل المعنى على اللفظ أو تفضيل اللفظ على المعنى حتى ندخل في هذه التفاصيل .

لقد دفعت إغارة الشاعر أو الكاتب على أفكار غيره بعض نقَّادنا في القديم إلى نسبة السرقة إلى هذا الشاعر أو هذا الكاتب ، على أن العرب قد تشترك في طائفةٍ من الألفاظ والمعاني ؛ وقد عمل الآمدي كتاباً في هذا الموضوع ، فقد جاء في معجم الأدباء أن له كتاب الخاص والمشترك ، تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعاني التي تشترك فيهـــا العرب ولا ينسب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مستعملها إلى السرقة وإن كان قد سبق إليها ، وبين الخاص الذي ابتدعه الشعراء وتفرّدوا به ، وما قصّر الآمدي في إيضاح ذلك وتحقيقه ؛ وقد فطن ياقوت إلى هذه المسألة فقال : أكثر ما ينسب إلى الشعراء من السرقات إنما هو من باب توارد الخواطر .

ولا ريب في أن الذي لا يدخل في باب توارد الخواطر إنما هو أن يغير المؤلف على أفكار غيره ، فينهبها بألفاظها نفسها ، فهذا يدخل في باب السرقات ، أمّا إذا أغار المؤلف على أفكار غيره ، كما فعل « ڤولتير » فأفصح عنها بأسلوبه الخاص ، بأسلوب يجمع خصائص البلاغة ، فهذه الإغارة تأتي مؤيدة لقول « بوفون » الأسلوب هو الرجل ، أو بعبارة أوضح إذا جاز لي هذا التصرف : الرجل هو الأسلوب .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net